

الجمع بين قوة العقل وإمتاع العاطفة

في أسلوب القرآن الكريم

د. بدرية محمد حسن العثمان^(*)

ملخص البحث

إن دراسة مواضع الإعجاز في القرآن الكريم مما انصب عليه اهتمام العلماء في مختلف العصور، ونواحي الإعجاز في القرآن الكريم متعددة، ولعل من أهمها الإعجاز البلاغي الذي تحدى العرب أن يأتوا بمثله، ومع أنهم قوم أهل بلاغة وبيان إلا أنهم عجزوا عن الإتيان بمثل أقصر سورة فيه، وحين ثبت العجز في كل عصر عكف العلماء على دراسة أسلوب القرآن الكريم الذي هو من جنس كلامهم، ولكنه جاء بأسلوب لم يعرفوه من قبل وعجزوا عن الإتيان بمثله، فكانت الدراسات البلاغية لمعرفة سر هذا الإعجاز وسبب هذا العجز، حتى توصل العلماء إلى أن المعجز هو أسلوب النظم في القرآن الكريم، ومنه كانت الدراسات البلاغية المختلفة لهذا الأسلوب، ومما تميز به وتفرد : الجمع بين قوة العقل وإمتاع العاطفة، وذلك لا يستطيعه أي متحدث مهما أوتي من البلاغة والبيان، وقد حاولت إيضاح هذه الخاصية من خلال آية واحدة تجلت فيها قوة العقل وإمتاع العاطفة وهي آية القصاص، وقد قمت بجمع هذه المادة العلمية من كتب التفسير والبلاغة، وجعلت البحث مكوناً مما يأتي:

١- التمهيد وتحدثت فيه عن معنى الأسلوب في اللغة والاصطلاح، وفي القرآن الكريم.

(*) أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب - جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن

٢- تناولت هذه الخاصية من خلال آية القصاص وبيّنت معنى هذه الآية وما فيها من أوجه البلاغة والبيان.

٣- بيّنت كيف جمعت الآية بين خطاب العقل وملامسة العاطفة لتقرير هذا الحكم الإلهي الذي ورد فيها.

٤- خلصت في الخاتمة إلى أن الجمع بين قوة العقل وإمتاع العاطفة مما تفرد به أسلوب القرآن الكريم، وأن القرآن الكريم يزخر بمثل هذه الآية التي يتجلى فيها إعجازه، وما زال الباب مفتوحاً للباحثين للتتقيب عن نواحي الإعجاز في هذا الأسلوب، وليكون في ذلك نفعاً عظيماً لأهل البلاغة واللغة، ولعلماء النفس، يبين لهم مداخل النفس الإنسانية، وأسلوب قيادتها والتأثير عليها بأسلوب متميز.

إن البحث في أسلوب القرآن الكريم وأسرار إعجازه من أهم العلوم قاطبة لدى العرب عامة والمسلمين خاصة، لأن القرآن الكريم معجزة عامة، عمت الثقليين، وباقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وفيه الدلالة على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وصدق رسالته، عجز العرب عن الإتيان بمثل أقصر سورة فيه مع طول المدة، بل عجزوا عن القدح في آياته، والطعن في دلالته، فتحيروا في أمره، وتعجبوا من عجزهم وإعجازه، وكل من تنأى في البلاغة وعلم الأساليب إذا سمع القرآن عرف أنه معجز. وأوجه الإعجاز في القرآن الكريم كثيرة، ولكن أبرزها هو الإعجاز بالنظم، وهو أسلوب القرآن المنفرد. وأوجه البلاغة والإعجاز في هذا الأسلوب متنوعة، أنى قلبت فيها النظر زادتك إيماناً بإعجازه، وقد ملت إلى دراسة هذا الوجه من الإعجاز في القرآن الكريم، ولذلك قمت ببعض الدراسات البلاغية في آياته، وذلك من توفيق الله - عز وجل - ونعمته علي، ورأيت أن أفتح الباب في جانب من جوانب الإعجاز في أسلوبه وكانت هذه الدراسة المتواضعة والتي رغبت أن تكون في الجمع بين قوة العقل وإمتاع العاطفة في أسلوب القرآن الكريم. وقد بدأت هذه الدراسة بالتمهيد وفيه تحدثت عن معنى الأسلوب في اللغة، والاصطلاح ثم تحدثت عن المراد بأسلوب القرآن الكريم ثم عرضت أسلوب القرآن في الجمع بين قوة العقل وإمتاع العاطفة وذلك من خلال آية القصاص ثم عرضت لأوجه البلاغة التي وردت في هذه الآية وبعد ذلك بينت أسلوب القرآن الكريم في خطاب العقل وملامسة العاطفة في هذه الآية، ثم تأتي خاتمة البحث وتحدثت فيها عن هذه الدراسة والنتائج التي خلصت إليها، والتوصيات التي أراها للباحثين من بعدي في هذا المجال، فإن وفقني فبنعمة الله وفضله، وإن أخطأت فمن تقصير البشر.

التمهيد

الأسلوب في اللغة:

يقال للسطر من النخيل: أسلوب. وكل طريق ممتد، فهو أسلوب. قال: والأسلوب الطريق، والوجه، والمذهب، يقال: أنتم في أسلوب سوء، ويجمع أساليب، والأسلوب الطريق تأخذ فيه. والأسلوب، بالضم: الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه^(١).

الأسلوب في الاصطلاح:

تواضع المتأدبون وعلماء العربية، على أن الأسلوب هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، أو هو المذهب الكلامي الذي أنفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه. أو هو طابع الكلام أو فنه الذي أنفرد به المتكلم كذلك^(٢).

أسلوب القرآن الكريم:

أرسل الله عز وجل - الرسل لعباده ليوضحوا لهم الطريق الصحيح إلى الله سبحانه - فكان كل رسول يطلب منه قومه معجزة ودليلاً على أن الله أرسله إليهم، فكان كل رسول يأتي بمعجزة من جنس ما برع فيه قومه حتى إذا رأوها أيقنوا أنه رسول من عند الله، فكان لموسى -عليه السلام- فلق البحر، واليد، والعصا، وتقجر الحجر إلى سائر أعلامه زمن السحر. وكان لعيسى -عليه السلام- إحياء الموتى، وخلق الطير من الطين، وإبراء الأكمة والأبرص إلى سائر أعلامه من الطب.

(١) الإمام أبي الفضل جمال الدين محمد بن منظور، لسان العرب، فصل السين المهملة/ حرف الباء -م- ١- دار صادر، بيروت.

(٢) الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط ٣، م ١٩٨/٢ وأنظر الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، د. محمد كريم الكواز، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ط ٢- طرابلس، ليبيا.

وكان لمحمد - صلى الله عليه وسلم - الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، لم يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، إلى سائر أعلامه زمن البيان.

كانت معجزة محمد صلى الله عليه وسلم - القرآن الكريم الذي ضم أوجه إعجاز كثيرة من أبرزها الإعجاز البلاغي الذي تحدى العرب أن يأتوا بمثل نظمته، وكانت العرب أمة لغة لم تصل أمة من الأمم إلى ما وصلوا إليه من جمال اللغة وحسن البيان، "ألفاظ العرب مبنية على ثمانية وعشرين حرفاً وهي أقصى طوق اللسان، وألفاظ جميع الأمم قاصرة عن ثمانية وعشرين"^(١).

"وللعرب المجازات في الكلام، ومعناها: طرق القول ومآخذه... وبكل هذه المذاهب نزل القرآن، وذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة، كما نُقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية، وترجمت التوراة والزيور، وسائر كتب الله تعالى بالعربية، لأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب"^(٢).

وقد اعترض كتاب الله كثير من الملحدين والطاعنين والمشككين وأتوا بعلل واهية دلت على فساد الأفهام، ولو أنهم استطاعوا النيل من هذه المعجزة الخالدة لسبقهم إلى ذلك رواد اللغة من فصحاء العرب وبلغائهم وهم أهل اللدد والخصومة مع اللب والنهي، ولهم ألسنة حداد وقد وصفهم الله بذلك في غير موضع من الكتاب، فكانوا مرة يقولون: هو سحر، ومرة يقولون: هو قول الكهنة، ومرة: أساطير الأولين، ومع ذلك لم يحك الله تعالى عنهم، ولا بلغنا في شيء من الروايات أنهم استطاعوا أن يعيبوه أو يأتوا بمثل أقصر سورة منه^(٣).

(١) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، دار الكتب العلمية، ط ٣، بيروت، لبنان ١٤٠١هـ - ١٩٨١م،

(٢) السابق، ص ٢٠-٢١.

(٣) أنظر السابق.

فكان عجزهم عن النيل أو الإتيان بمثله دافعاً للعلماء والأدباء وأهل اللغة إلى البحث عن سبب ذلك العجز حتى توصلوا بعد أن حفيت الأقدام، وجفت الأقلام، وقلّ المشمرون إلى أن هذا القرآن قد تفرد بأسلوبه وطريقته، فهو من جنس كلامهم، وحروفه لا تخرج عما عرفوه من حر وفهم ولكن نظمه تفرد وعلا وأعتلى على كل بيان.

يقول الباقلاني عن أسلوب القرآن: "فهذا إذا تأمله المتأمل تبين بخروجه عن أصناف كلامهم، وأساليب خطابهم، إنه خرج عن العادة، وإنه معجز، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن، وتميز حاصل في جميعه^(١)".

والقرآن الكريم لم يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربية، بل جاء كتاباً عربياً جارياً على مألوف العرب، ولكن المعجز والمدهش والمثير للعجب أن القرآن أعجزهم بأسلوبه الفذ، ومذهبه الكلامي المعجز، ولو دخل عليهم من غير هذا الباب الذي يعرفونه، لأمكن أن يلتمس لهم عذر أو شبه عذر، وأن يسلم لهم طعن أو شبه طعن. ولهذا المعنى وصف الله كتابه بالعروبة في غير آية، فقال جل ذكره في سورة يوسف: "إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون" وفي سورة الزخرف: "إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون".

وفي سورة الزمر: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾^(٢)، وأسلوب القرآن الكريم هو طريقته التي تفرد بها، وكل كلام إلهي أو بشري له خصائص يتميز بها، وأساليب المتكلمين تختلف باختلاف أغراضهم وتتعدد بتعدد أشخاصهم، بل تتعدد في الشخص الواحد بتعدد الموضوعات والفنون التي يعالجها، فقد يبرع الأديب أو المتحدث في موضوع ويخفق في آخر فلا يمكن أن نجد المتحدث شاعراً كان أو ناثراً يبقى على مستوى واحد فإن تألق في قصيدة قصر في أخرى، ولكن أسلوب القرآن الكريم بقي على مستوى واحد متألق في جميع موضوعاته وسوره، وذلك هو الإعجاز.

(١) الإمام أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، إعجاز القرآن، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، بيروت، لبنان. ١٤٠٦هـ؛ ١٩٨٦م، ص ٨.

(٢) أنظر مناهل العرفان م ٢٠١/٢

الجمع بين قوة العقل وإمتاع العاطفة:

امتاز أسلوب القرآن الكريم بخصائص عديدة، ومتفردة لا توجد في كلام غيره، ذكرها العلماء في كتبهم، وسوف أتناول في هذا الموضع خاصية واحدة وهي أسلوب القرآن الكريم في جمعه بين قوة العقل وإمتاع العاطفة.

إن النفس الإنسانية تجمع قوتين: قوة تفكير، وقوة وجدان، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها. فلما إحداهما فتتقّب عن الحق لمعرفة، وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم، والبيان التام هو الذي يوقي لك هاتين الحاجتين ويطيّر إلى نفسك بهذين الجناحين، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معاً^(١).

ومن المعلوم في العرف العام أن الأساليب البشرية في الكتابة لا تخرج عن أحد أسلوبين: الأسلوب العلمي، والأسلوب الأدبي. ولكل أسلوب أهله فأهل العلم يميلون إلى الأساليب العلمية الجافة الخالية من الأحاسيس والمشاعر، وأهل الأدب لهم الأسلوب الذي يلامس القلوب ويهز الوجدان مع خلوه في الغالب مما يغذي الأفكار ويقنع العقول، وذلك لأن القوى العاقلة والقوى الشاعرة في بني الإنسان غير متكافئة، وعلى فرض تكافئها في شخص فإنهما لا تعملان دفعة واحدة بل على سبيل البذل والمناوبة، قال تعالى: **جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ فِي الْأَحْزَابِ: ٤**

أما القرآن الكريم فقد انفرد بهذه الميزة بين أنواع الكلام، لأنه تنزّل من لا يشغله شأن عن شأن، والذي جمع بين الأضداد كلها، وجمع بين الروح والجسد في قرآن^(٢).

١. ولعل لنا في هذه الآية الآتية ما يوضح المقصود، قال تعالى: **﴿إِٰمَنُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى**

(١) د. محمد عبدالله دراز، النبأ العظيم، دار طيبة، ط٢، المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ص ١٤٣.

(٢) أنظر مناهل العرفان م ٢١١/٢ - والنبأ العظيم، ص ١٤٣-١٤٤.

بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّى إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾ البقرة: ١٧٨ - ١٧٩ هذه الآية الكريمة في القرآن الكريم من آيات الأحكام، نزل فيها حكم من أشد الأحكام بل هو أشد الأحكام في الشريعة الإسلامية، وهو حد القصاص، فهو صنف من التشريع للأحكام الرئيسية لصالح المجتمع الإسلامي واستتباب نظامه، وأمنه، لأن أعظم شيء من اختلال الأحوال اختلال حفظ نفوس الأمة، وقد أفرط العرب في إضاعة هذا الأصل حتى كاد بعضهم يفني بعضاً^(١)، وإذا تأملنا هذه الآية نجد عجباً في صياغتها فقد جمعت بين قوة العقل وإمتاع العاطفة، فوجهت العقل وضربت بشدة، ولامست الأحاسيس واستبهرت المشاعر الإنسانية في الوقت نفسه بصورة تخفف شدة وقع هذا الحكم على النفوس، وتجعلها تتلقاه بالقبول والطمأنينة، لذا بدأ الخطاب في الآية بقوله: "يا أيها الذين آمنوا" وافتتح الكلام بالنداء، وحين يفتتح الكلام بالنداء في العربية فإن في ذلك إشعاراً بخبر مهم عظيم، لأن الأخبار العظيمة التي تهول المخاطب وتهز وجدانه وتجذب عقله وقلبه تقدم بما يهيئ النفس لقبولها، لتستأنس بها قبل أن تفاجئها^(٢).

وندائمهم بقوله: (يا أيها الذين آمنوا) استدراجاً لهم إلى الطاعة^(٣).

ثم قال: "كتب" فجاء الفعل مبنياً للمجهول، وهو بهذه الصيغة يفيد الوجوب في عرف الشرع، وهو بمعنى فرض^(٤). وكلمة "عليكم" مشعرة بالوجوب^(٥)، وأنه حق

(١) الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، أنظر تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس .

م ١/ج ٢/٥٢

(٢) السابق

(٣) هامش النبأ العظيم، ص ١٤٦

(٤) أنظر تأويل مشكل القرآن، ص ٤٦٢

(٥) الإمام أبو عبد الله محمد بن عمر فخر الدين الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار إحياء

التراث العربي، ط ٣، م ٤٦/٣ بيروت، لبنان.

لازم للأمة لا محيد عن الأخذ به، فضمير "عليكم" لمجموع الأمة على الجملة لمن توجه له حق القصاص وليس المراد على كل فرد القصاص، لأن ولي الدم له العفو عن دم وليه^(١).

و"القصاص" هو أن يفعل بالإنسان مثل ما فعل^(٢). وقيل هو: اسم لتعويض حق جنائية، أو حق عزم على أحد يمثل ذلك من عند المحقوق إنصافاً وعدلاً.... فإطلاقاته كلها تدل على التعادل والتناصف في الحقوق والتبعات^(٣).

ثم قال: "في القتل" أي بسبب القتل، لأن كلمة "في" قد تستعمل للسببية^(٤)، وقيل: للطرفية المجازية، والقصاص لا يكون في ذوات القتلى، فتعين تقدير مضاف، وحذفه هنا ليشمل القصاص سائر شؤون القتل، وسائر معاني القصاص فهو إيجاز وتعميم^(٥).

وكلا الوجهين يكشف عن لون بلاغي في هذا الموضع.

وجمع "القتلى" باعتبار جمع المخاطبين، أي في قتلكم، والتعريف في "القتلى" تعريف الجنس. وجملة "الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى" بيان وتفصيل لجملة "كتب عليكم القصاص في القتل"، فالباء في قوله "بالحر" وما بعده، متعلقة بمحذوف دل عليه معنى القصاص.

والتقدير: الحر يقتل بالحر، لا بغيره، والعبد يقتل بالعبد لا بغيره، والأنثى تقتل بالأنثى لا بغيرها... وخصت الأنثى بالذكر مع أنها مشمولة لعموم الحر بالحر، والعبد، لئلا يتوهم أن صيغة التذكير في قوله: "الحر" وقوله: "العبد" مراد بها خصوص الذكور.

(١) تفسير التحرير والتنوير، م ١٣٤/٢ ج ١

(٢) التفسير الكبير، م ٤٦/٣

(٣) التحرير والتنوير، م ١٣٤/٢ ج ١

(٤) التفسير الكبير، م ٤٦/٣

(٥) التحرير والتنوير، م ١٣٤/٢ ج ١

ثم قال تعالى: "فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة"، الفاء لتفريع الإخبار أي لمجرد الترتيب اللفظي لا لتفريع حصول ما تضمنته الجملة المعطوفة بها على حصول ما تضمنه ما قبلها، والمقصود ببيان أن أخذ الولي بالقصاص المستفاد من صور "كتب عليكم القصاص في القتلى" ليس واجباً عليه ولكنه حق له فقط، لئلا يتوهم من قوله "كتب عليكم" أن الأخذ به واجب على ولي القتيل، والتصدي لتفريع ذكر هذا بعد ذكر حق القصاص للإيماء إلى أن الأولى بالناس قبول الصلح استبقاء لأواصر أخوة الإسلام، وأنفق جميعهم على أن القصد منها الترغيب في المصالحة عن الدماء^(١).

وهذا من الدقة في استخدام اللفظ في القرآن الكريم حتى يعرف الناس ما هو حق لهم وما هو واجب عليهم وشتان بين الأمرين، وذلك قمة العدل والحرية في أحكام الإسلام، فمن العدل أن جعل القصاص حق لأهل القتيل، ومن الحرية أن ترك لهم حق العفو أو عدمه.

ومن دقة التعبير القرآني في هذه الآية أنه قال سبحانه: "فمن عفي له من أخيه" ولم يقل: فمن عفي عنه، قيل: يتعدى "بعن" إلى الجاني وإلى المذنب، فيقال: عفوت عن فلان وعن ذنبه، فإذا تعدى إلى الذنب والجاني معاً قيل: عفوت لفلان عما جنى، كما يقول: غفرت له ذنبه وتجاوزت له عنه، وعلى هذا ما في الآية، كأنه قيل: فمن عفى له عند جنائته، فاستغنى عن ذكر الجناية^(٢).

وكذلك نرى التعبير بكلمة "العفو" ومن معاني العفو أنه الميسور من المال الذي لا يجحف ببذله، وإيثار هذا الفعل لأنه يؤذن بمراعاة التيسير والسماحة وهي من خلق الإسلام^(٣)، بل قمة الرحمة والكرم في ثنايا هذا الحكم الموجع.

(١) التحرير والتنوير، م ١/ج ٢/٣٤ - ١٤٥

(٢) الإمام محمود بن عمر الزمخشري، أنظر تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، ط ١/٢١١-٢٢٢، ج ٣، بيروت، لبنان. ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م،

(٣) التحرير والتنوير م ١/ج ٢/١٣٤ - ١٤٥

وفي قوله: "من أخيه شيء" عبّر عن عوض الدم بشيء، لأن العوض يختلف فقد يعرض على ولي الدم مال من ذهب أو فضة، وقد يعرض عليه إيل أو عروض أو قصاصة دماء بين الحيين، إذ ليس العوض من قتل العمد معيناً كما هو في دية قتل الخطأ^(١)، فتكون لفظة "بشيء" اسم متوغل في التذكير دال على نوع ما يصلح له سياق الكلام^(٢)، فهو الدية على بعض التفاسير أو هو العفو على تفسير آخر^(٣).

وفي ذكر هذه الكلمة "شيء" أي شيء من العفو للإشعار بأنه إذا عفي له طرف من العفو، وبعض منه بأن يعفي عن بعض الدم، أو عفا عنه بعض الورثة تم العفو، وسقط القصاص، ولم تجب إلا الدية^(٤)، وذلك أيضاً من معاني الرحمة في ثأيا هذا الحكم.

ثم قال: "فإتباع" و "أداء" وهما مصدران وقعا عوضاً عن فعلين، والتقدير: فليتبع إتباعاً وليؤد أداء، فعدل عن أن ينصب على المفعولية المطلقة إلى الرفع، لإفادة معنى الثبات والتحقيق الحاصل بالجملة الاسمية، وفي هذا تحريض أن عفي له أن يقبل ما عفي له، وتحريض لأخيه على أداء ما بذله بإحسان^(٥)، لا يمطله ولا يخسه^(٦).

وقوله: "بالمعروف" المعروف هو الذي تألفه النفوس وتستحسنه، فهو مما تسربه النفوس، ولا تشمئز منه، ولا تنكره، والباء في قوله: "بالمعروف" للملابسة أي فإتباع مصاحب للمعروف أي رضا وقبول وحسن اقتضاء إن وقع مطل، وقبول التجيم إن سألته للقاتل. والأداء: الدفع وإبلاغ الحق، والمراد به إعطاء مال الصلح، وذكر متعلقة وهو قوله: "إليه" المؤذن بالوصول إليه والانتهاء إليه، للإشارة إلى إبلاغ

(١) الكشف، ج ١/ ٢٢١-٢٢٢.

(٢) التحرير والتنوير م ١/ ٢/ ١٤١.

(٣) السابق، م ١/ ٢/ ٥٥.

(٤) أنظر الكشف، ج ١/ ٢٢١-٢٢٢.

(٥) التحرير والتنوير م ١/ ٢/ ١٣٤-١٤٥، وأنظر الكشف ج ١/ ٢٢٢.

(٦) الكشف ج ١/ ٢٢٢.

مال الصلح إلى أهل المقتول بأن يذهب به إليه، ولا يكلفه الحضور بنفسه لقبضه، وفيه إشارة إلى أنه لا يماطله، وزاد ذلك تقريراً قوله: "باحسان" أي دون غضب، ولا كلام كرية أو جفاء معاملة^(١).

وفي ذكر اسم الإشارة "ذلك" إشارة إلى الحكم المذكور من العفو والدية^(٢).

وفي قوله تعالى: "مَن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم" البقرة: ١٧٨، الفاء تفرع عن حكم العفو، لأن العفو يقتضي شكر الله على أن أنجاه بشرع جواز العفو، وبأن سخر الولي للعفو، ومن الشكر ألا يعود إلى الجناية مرة أخرى، فإن عاد فله عذاب أليم^(٣).

١. وبعد هذا التفصيل في الحكم نجد القرآن الكريم يعلل لهذا الحكم فيقول تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ١٧٩ قال العلماء: كلام فصيح لما فيه من الغرابة، وهو أن القصاص قتل، وتقويت للحياة، وقد جعل مكاناً وظرفاً للحياة، ومن إصابة محز البلاغة بتعريف القصاص، وتكثير الحياة؟ لأن المعنى، ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة، فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أي حياة، أو نوع من الحياة، وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل، لأنه إذا هم بالقتل فعلم أنه يقتص فارتدع منه سلم صاحبه من القتل، وسلم هو من القود^(٤).

ومن الأوجه البلاغية التي عدها العلماء في هذه الآية مع ما فيها من الإيجاز، أن في الآية طباقاً، لأن القصاص يشعر بضد الحياة.

(١) التحرير والتنوير م١/ج٢/١٣٤-١٤٥

(٢) الكشاف ج١/٢٢٢

(٣) التحرير والتنوير م١/ج٢/١٣٤-١٤٥

(٤) الكشاف ج١/٢٢٣ - وأنظر هذا المعنى في التفسير الكبير م٣/٤٦-٥٧

واشتملت الآية على فن بديع وهو جعل أحد الضدين الذي هو الفناء والموت محلاً ومكاناً لضده الذي هو الحياة، واستقرار الحياة في الموت مبالغة عظيمة. ومجيء لفظ "القصاص" في الآية يشعر بالمساواة فهو مبني على العدل، كما أن الآية رادعة عن القتل والجرح معاً لشمول القصاص لهما والحياة أيضاً في قصاص الأعضاء، لأن قطع العضو ينقص أو ينغص مصلحة الحياة، وقد يتسبب في الموت^(١).

والنتكير في "حياة" للتعظيم بقرينة المقام. وفي قوله تعالى: "يا أولي الأبواب" تنبيه بحرف النداء، على التأمل في حكمة القصاص، ولذلك جيء في التعريف بطريق الإضافة الدالة على أنهم أهل العقول الكاملة، لأن حكمة القصاص لا يدركها إلا أهل النظر الصحيح.

وفي قوله: "لعلكم تتقون" إكمالاً لليلة أي تقريباً لأن تتقوا فلا تتجاوزوا في أخذ الثأر حد العدل والإنصاف .

وكلمة "لعل" للرجاء وهي هنا تمثيل أو استعارة تبعية^(٢).

وقيل: "لعلكم تتقون" أي تعملون عمل أهل التقوى في المحافظة على القصاص والحكم به، وهو خطاب له فضل اختصاص بالأئمة^(٣).

وقد اتفق علماء البيان على أن هذه الآية في الإيجاز قد بلغت أعلى الدرجات^(٤). وهذا الإيجاز البليغ يسمى جوامع الكلم، ويسرى مسرى المثل عند العرب^(٥).

(١) الشيخ جلال الدين السيوطي، أنظر الإتيان في علوم القرآن، عالم الكتب، ج ٢/٥٦، بيروت..

(٢) أنظر التحرير والتنوير م ١/ج ٢/١٣٤-١٤٥، والتفسير الكبير م ٣/٤٦-٥٧

(٣) الكشاف ١/٢٢٣

(٤) التفسير الكبير م ٣/٤٦-٥٧

(٥) التحرير والتنوير م ١/ج ٢/١٤٥

وبعد قراءة هذه اللمسات البلاغية في الآية الكريمة نجد الإعجاز في الآية مما تفرد به القرآن الكريم في أسلوبه والجمع بين قوة العقل وإمتاع العاطفة، فنرى أن في الآية حكماً نزل يعد من أشد الأحكام إيلاً للنفوس بل هو أشدها على الإطلاق، ولكنه مع ذلك نزل بأسلوب عجيب يخاطب العقول ويقنعها بلزومه حفاظاً على أمن النفوس وبقاء المجتمعات، ومع ما فيه من الألم إلا أنه الدواء الفعال للقضاء على هذا الداء الذي فتك بالمجتمعات خاصة المجتمع العربي الذي كان يقوم على القبلية والتعصب للقبيلة والأخذ بالثأر كاد أن يفني هذه المجتمعات فكان لابد من حكم رادع لهذا الداء الفتاك، فنزل القرآن بهذا الحكم العادل مع ما فيه من ألم على النفوس ومع ذلك نجد أنه يفرض هذا الحكم الموجه وفي الوقت ذاته يلامس "شاعر ولا ينسى العاطفة الإنسانية" فبدأ الآية باستدراجهم إلى قبول هذه الطاعة حين خاطبهم بقوله: "يا أيها الذين آمنوا" ثم انتقلت إلى الموتورين ورقق العاطفة في خطابهم في قوله "أخيه" وقوله "المعروف" وقوله "بإحسان" والامتنان في قوله "تخفيف من ربكم ورحمة" والتهديد في ختام الآية^(١).

ونراه يقول "فمن عفي له من أخيه" وهو ولي المقتول والمراد بأخيه القاتل وصنف بأنه أخ تذكيراً بأخوة الإسلام وترقيقاً لنفس ولي المقتول، لأنه إذا اعتبر القاتل أخاً له كان من المرؤة ألا يرضى بالقود منه، لأنه كمن رضي بقتل أخيه.

ومقصد الآية الترغيب في الرضا بأخذ العوض عن دم القتيل بدلاً من القصاص لتغيير ما كان أهل الجاهلية يتعبرون به من أخذ الصلح في قتل العمد ويعدونه بيعاً لهم مولاهم، وإطلاق وصف الأخ على المماثل في دين الإسلام تأسيس أصل جاء به القرآن جعل به التوافق في العقيدة كالتوافق في نسب الأخوة، وحقاً فإن التوافق في الدين أصرة نفسانية والتوافق في النسب أصرة حسية، والروح أشرف من الجسد^(٢). فجد القرآن يلامس هذه العاطفة القوية ويهزها لتستيقظ من غضب الانتقام وثورته إلى سكن الأخوة والرحمة.

(١) الشيخ جلال الدين السيوطي، أنظر الإتيان في علوم القرآن، عالم الكتب، ج ٢/٥٦ - بيروت.

(٢) تفسير التحرير والتويرم ١/ج ٢/١٣٤-١٤٥

ونقرأ في قوله تعالى: "ذلکم تخفیف من ربکم ورحمة" إشارة إلى الحكم المذكور وهو قبول العفو وإحسان الأداء والعدول عن القصاص، تخفیف من الله على الناس فهو رحمة منه أي أثر رحمته، إذ التخفیف في الحكم أثر الرحمة، فالأخذ بالقصاص عدل والأخذ بالعفو رحمة^(١)، وذلك قمة الإعجاز في الجمع بين العقل والعاطفة في موضع واحد.

"ولما كانت مشروعية القصاص كافية في تحقيق مقصد الشريعة في شرع القصاص من ازديار الناس عن قتل النفوس وتحقيق حفظ حق المقتول بكون الخيرة للولي كان الإذن في العفو إن تراضيا عليه رحمه من الله بالجائنين، فالعدل مقدم والرحمة تأتي بعده"^(٢).

وبعد أن نزل الحكم المؤلم وفصل في جوانبه خاطب العقل ولامس العاطفة ترغيباً وإغراءً واستنهاضاً لمشاعر الأخوة وبعد أن اكتملت كل المعالم المحيطة بهذا الحكم عقلاً وعاطفة نجده يلتفت إلى الجانبين المعتدي والمعتدى عليه كما فهم من تفسير هذه الآية فيتوعد ويرهب من تسول له نفسه التعدي على الآخر سواء كان الخطاب موجهاً لأهل الدم الذين رضوا بالدية وآمنوا بالعفو، أو كان الخطاب موجهاً للمعتدي الذي عفى عنه إكراماً وطلباً للأجر من الله فإن سولت له نفسه الاعتداء مرة أخرى فله الوعيد الشديد، "وقد فسر الجمهور العذاب الأليم بعذاب الآخرة والمراد تشديد العذاب عليه... سواء كان العذاب عذاب الآخرة أو عذاب الدنيا أن تكرر الجناية يوجب التغليظ وهو ظاهر من مقاصد الشارع، لأن الجناية قد تصير له دربه فعوده إلى قتل النفس يؤذن باستخفافه بالأنفس فيجب أن يراح منه الناس"^(٣).

١. وبعد نهاية هذا الحكم وتفصيلاته يبين عز وجل في أبلغ بيان وأوجزه الحكمة من هذا التشريع فقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ١٧٩، فلامس المشاعر وحرك العواطف بأن في تحقيق هذا الحكم بقاء

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

حياة المخاطبين واستمرار عيشتهم بأمن وأمان وذلك أقصى ما تسعى إليه النفوس، بل إنه مطلب كل حي على وجه هذه الأرض، وقد يتبادر إلى ذهن أي أحد كيف يليق بكمال رحمته إيلام العبد الضعيف؟ لأن في حكم القصاص إيلام، لأجل ذلك دفع هذا السؤال بأن هذا الحكم يفضي إلى الحياة في حق من يريد أن يكون قاتلاً، وفي حق من يريد جعله مقتولاً، وفي حق غيرهما أيضاً، فالقاتل إذا علم أنه مقتولاً ترك القتل، ويبقى من يراد جعله مقتولاً غير مقتول، وفي بقائهما بقاء من يتعصب لهما^(١)، وتلك هي الرحمة المهداة في ثنايا هذا الحكم الموجه ظاهره.

(١) أنظر التفسير الكبير م ٤٦-٥٧ بتصريف.

الخاتمة

استعرضت في هذا البحث معنى كلمة الأسلوب في اللغة العربية، وفي اصطلاح أهل الأدب والبلاغة، ثم تحدثت عن أسلوب القرآن الكريم خاصة، وبعد ذلك تحدثت عن خاصية واحدة من خصائص أسلوب القرآن الكريم وهي "الجمع بين قوة العقل وإمتاع العاطفة" وبينت أن هذه الخاصية مما تفرد به القرآن الكريم، بل لا نجد هذه الصفة في أي أسلوب آخر.

وقد بينت هذه الخاصة من خلال دراسة آية القصاص في القرآن الكريم، وحاولت جهدي بيان ما في هذه الآية من أوجه البلاغة والبيان، ووضحت مواضع مخاطبة العقل ومواضع ملازمة الوجدان والمشاعر. وخلص من هذا البحث إلى الآتي:

- ١- أن القرآن الكريم قد اتبع كل الطرق للوصول إلى دواخل النفوس والتأثير فيها .
- ٢- تميز أسلوب القرآن الكريم ببلاغته المعجزة حتى في تقرير الحدود الموجهة .
- ٣- أن أسلوب القرآن الكريم في جمعه بين خطاب العقل وملازمة العاطفة تجلى لنا من خلال آية القصاص التي ظهر لنا فيها حشد من الصور البلاغية المميزة.
- ٤- أن القرآن الكريم يزخر بمثل هذه الآيات التي تجمع بين العقل والعاطفة بأسلوب بلاغي مميز و يظهر من خلاله جمال أسلوب القرآن الكريم وبلاغته وإعجازه، مما يفتح الأبواب أمام الباحثين للتنقيب عن كنوزه في هذا المجال وليستفيد من ذلك أهل اللغة والأدب والبيان، ومن لهم اهتمام بالنفس الإنسانية وخطابها والتأثير فيها وقيادتها.

وفي الختام لا أقول إلا كما قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي رواه علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- ومنه قوله: "... ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه...^(١) والحمد لله رب العالمين.

(١) سنن الترمذي، الرقم: ٢٩٠٦

المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

١- دراز ، محمد عبدالله دراز ، النبأ العظيم ، دار طيبة ، ط١ ، المملكة العربية السعودية ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

٢- الرازي ، أبو عبدالله محمد بن عمر فخر الدين ، التفسير الكبير ومفتاح الغيب ، دار إحياء التراث العربي ، ط٣ ، بيروت ، لبنان .

٣- الزرقاني ، محمد عبد العظيم ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، دار إحياء الكتب العربية ، ط٣ .

٤- الزمخشري ، محمود بن عمر ، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، دار الكتاب العربي ، ط٣ بيروت لبنان ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م .

٥- السيوطي ، جلال الدين ، الاتقان في علوم القرآن ، عالم الكتب ، بيروت

٦- ابن عاشور ، محمد الطاهر ، تفسير التحرير والتنوير ، دار سحنون ، تونس .

٧- ابن قتيبة ، محمد بن مسلم ، تأويل مشكل القرآن ، دار الكتب العلمية ، ط٣ ، بيروت لبنان ١٤٠١هـ ١٩٨١م

٨- الكوازي ، محمد كريم ، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، ط٢ ، طرابلس ، ليبيا

٩- ابن منظور ، الإمام أبي الفضل جمال الدين محمد ، لسان العرب ، دار صادر بيروت .

* * *